CC BY

College of Basic Education Research Journal

www.berj.mosuljournals.com

Literary Text Radiations in Illuminating the Dark Cultural Dimensions
A Reading of the Novel "A Crazy Night"

Asst. Prof. Dr. Qasim Mahmoud Muhammad
Akre University of Applied Sciences / College of Education / Department of Arabic Language

Article Information

Article history:
Received: March 4,2024
Reviewer: Abril 14,2024
Accepted: Abril 14,2024
Available online

Keywords:

Correspondence:
Qasim71mahmood@gmail.com

Abstract

This research aims to reveal the dark cultural dimensions in the novel "A Crazy Night" by Mohamed Hamdan Ben Jarsh, utilizing the radiations of the text that the writer artfully conveys within a framework of semantic data that implies cultural systems. The creative text carries multiple dimensions that do not directly surface and cannot be identified through a first reading; these dimensions require diving deep to search for signals that illuminate its obscurity . The study is based on both analysis and interpretation, being mindful of its intellectual perspective by following the course of events, recognizing the characters, and subsequently elucidating the ideas they carry, the principles they believe in, and the beliefs they yield to, while linking all of it with the external environment. The paper characters do not represent an individual case in a transient text; they consciously indicate—by the author's awareness—models in social reality. Consequently, a character may symbolize a thought of a particular group that believes in what this character believes. Thus, we focused on the most important elements and characters that open a window to the intellectual vision embedded in the novel text, aiming to engage with it to produce it anew within the critical space . The research axes are as follows: (The Obscurity of the Main Title, The Dark Cultural Dimensions in the Novel, Entry into Life, A Window of Hope, First Character: Salem/The Flute, Second Character: Hisham, Third Character: Noor Said Al-Sari)

ISSN: 1992 – 7452

إشعاعات النص الأدبي في تنوير الأبعاد الثقافية المعتمة
– قراءة في رواية ليلة مجنونة-

قاسم محمود محمد

جامعة عقرة للعلوم التطبيقية/ كلية التربية/ قسم اللغة العربية

الملخص:

يهدف البحث إلى كشف الأبعاد الثقافية المعتمة، في رواية ليلة مجنونة، لمحمد حمدان بن جرش[1]، مستعينا بإشعاعات النص، التي يبثها الكاتب، بصورة فنية في ظل معطيات دلالية، تضمر أنساقا ثقافية، فالنص الإبداعي يحمل أبعاداً متعدّدة لا تطفو على السطح مباشرة، ولا يمكن التعرف عليها من القراءة الأولى؛ إذ تحتاج تلك الأبعاد إلى الغوص في أعماقه بحثا عن إشارات تضيء عتمته.

تقوم الدراسة على التحليل والتأويل في آن واحد، متبصرة رؤيتها الفكرية من متابعة سير الأحداث، والتعرف على الشخصيات، ومن ثم بيان فكرها الذي تحمله، والمبادئ التي تؤمن بها، والمعتقدات التي ترضخ لها، وربط ذلك كله بالمحيط الخارجي؛ فالشخصيات الورقية لا تمثل حالة فردية في نص عابر؛ لأنها في الحقيقة تشير– بوعي من الكاتب– إلى نماذج في الواقع الاجتماعي، وعليه يمكن أن تكون الشخصية رمزا يحيل إلى فكر مجموعة ما، تؤمن بما تؤمن به هذه الشخصية، لذا وقفنا عند أهم العناصر والشخصيات التي تفتح نافذة نحو الرؤيا الفكرية المبثوثة في النص الروائي، بغية محاورته وصولا إلى إنتاجه ثانية ضمن الفضاء النقدي.

فجاءت محاور البحث على الشكل الآتي: (عتمة العنوان الرئيس، الأبعاد الثقافية المتمة في النص الروائي، الدخول الى الحياة، نافذة الأمل، الشخصية الأولى : سالم/ الناي، الشخصية الثانية: هشام، الشخصية الثالثة: نور سعيد الساري)

الكلمات المفتاحية: ليلة مجنونة، محمد حمدان بن جرش، الأبعاد الثقافية المعتمة، اشعاعات النص الأدبي، النسق لمضمر.

توطئة:

إن النص الأدبي لم يعد نصاً مغلقاً–كما يَنظر إليه البعض– فهو نص مفتوح، يحمل دلالات متنوعة، تكشفها القراءات المتعددة، التي تختلف هي الأخرى باختلاف وجهة النظر عند المتلقي، الذي يستعين بإمكانياته(اللغوية، ،والأدبية، والنقدية، والثقافية، الخ) التي تمكنه من فك شفرة النص.

[1] ـ محمد حمدان بن جرش كاتب وباحث اماراتي له كتب أدبية منها الموهبة الأدبية من التكوين الى التمكين، ومحكمة الحيوان، ورواية السيد والحشرة . كما شغل مناصب عدة في دولته، وترجمت بعض اعماله الى لغات أخرى، وقد حصل على جوائز عدّة.

أي أنَّ على الناقد أن يتسلح بمعرفة –على الأقل– تقترب من معطيات النص الفنية والدلالية، أو توازيها، وإن كان الأفضل أن تتفوق عليها، بغية النفاذ إلى أعماق النص، واستكناه المضمون الكامن فيه، وصولا إلى مغزاه، عبر آليات نقدية، تُفيد من إشعاعاته.

فالناقد يعمل على ملأ الفجوات التي يتركها المبدع في نصه، فيضيء الزوايا المعتمة فيه، ويربط تصوراته بالأبعاد الثقافية، في حدود الإيحاءات اللغوية، والأسلوبية، التي تمكنه من ذلك.

من هذا المنطلق، نضع رواية ليلة مجنونة، أمام تساؤلات عدّة، تحفر في تربتها، بحثا عن إجابات تنير الزوايا الثقافية المعتمة فيها،((وهي مهمة تنحصر في فهم تساؤل الخطاب، لا في استيعاب القراءة الظاهرة؛ لأنّ تساؤل النص وفق تنوع القراءة، ونوعية الاستيعاب الباطني، يتخذ طابع القراءة المنتجة لنص لاحق، يمنح النص السابق فعالية الدفع إلى الاستشراف، يشبه أن يكون خطابا مستقلا قائما على الإقناع، بعد الأخذ بضرورة فهم النص الأول؛ نتيجة القراءة التأويلية المنتجة، والمتجاوزة حدود اليقين إلى الدخول في عالم الاحتمالات))[٢].

إن قراءتنا تستند في تحليلها إلى ثلاثة أركان أساسية، الأول: السياق الذي أنتج النص، والثاني: القارئ الذي يمتلك دوراً في توجيه النص، والثالث: إشعاعات النص، فهو – أي النص– مليء بالعلامات المعرفية، التي تبدأ من قلبه متجهة نحو الخارج، من دون أن تتوغل فيه؛ لذا لا يمكن الاكتفاء بوصف النص لسانيا، وسيميائياً، وبلاغياً؛ لأن التحليل يبقى ناقصاً، ولكي يكتمل لابدّ من قراءة الإشعاعات المعرفية له في حدود الممكن، ضمن محيطه، وعدم الابتعاد أو الشطح عنه[٣]، ونبدأ أولا من العنوان بوصفه العتبة الأولى التي يلج من خلالها القارئ إلى المتن الروائي.

عُتمة العنوان الرئيس:

إن العنوان الأدبي بوصفه بنية إحالية تعتلي العمل الأدبي، لا يمكن النظر إليه كوحدة مستقلة بذاتها؛ لأن تفسيره لا يكتمل إلّا بقراءة المتن، فالعلاقة التي تربط بينهما– غالبا– هي علاقة تكاملية((وهذا يعني أن طبيعة الإحالة العنوانية التي يتم بمقتضاها النظر إلى ثنائية (عنوان/ نص) كرسالة متكاملة هي التي تمكن العنوان من اضطلاعه بدور المفتاح النصي الذي يوجه فاعلية قراءة المعنون قراءة سليمة جنبا إلى جنب))[٤]. وقد يقوم العنوان بوظيفة إغرائية تحريضية تشد انتباه المتلقي وتجذبه نحو قراءة المتن، كعنوان الرواية التي ندرسها(ليلة مجنونة) لمحمد حمدان بن جرش، إلا أن هذا العنوان –من جهة أخرى– لا يمكن له أن ينفصم عن المتن، فالقارئ للرواية يستشعر بعد أن يكمل قراءتها وظيفته الدلالية، التي ادخرها

---

(٢) ـ إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر: د. عبدالقادر فيدوح:٨.
(٣) ـ ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن: أ.د. حفناوي بعلي: ١٤٠- ١٤١.
(٤) ـ جماليات العنوان مقاربة في خطاب محمود درويش الشعري: د. جاسم محمد جاسم:٧٥.

المؤلف إلى الخاتمة، التي تكشف عن هذه الليلة بصفتها الجنونية، المستنبطة من طقوس شيطيانية كانت تقوم بها (نور الساري) إحدى شخصيات الرواية، فضلا عن الإيحاءات الرمزية لهذا العنوان.

فإذا تمعنا فيه(ليلة مجنونة) نجد عتمة، بسبب الصفة التركيبية له، حيث تم وصف الليلة بصفة بشرية، على طريق المجاز، فشدّ انتباه المتلقي، وحفزّه على قراءة المتن، أما الإيحاء فيه فيقف عند ليلة ما، قد تكون أحداثها مخالفة للعقل والمنطق، إلا أن القراءة الفاحصة لمضمون الرواية، تكشف عن زمن متتابع، يتجاوز فيزيائيا حدود الليلة الواحدة، فيبدو الزمن فيها طويلا سنوات عدة، فهناك جمل تؤكد ذلك منها قول منصور العابر: ((حتى مضى على خطبتنا أربع سنوات عجاف))[٥]، وغيرها من الإشارات إلى الفضاء الزمني المتتابع في الرواية، أي تحديد زمنها بليلة واحدة لا يتطابق مع المتن، فلماذا اختار المؤلف هذا العنوان؟ هذا ما تكشفه اشعاعات النص بعد قراءة الرواية كاملة.

يبدأ زمن الرواية من حصول بطلها (منصور العابر) على المرتبة الأولى على دفعته في اختصاص الطب النفسي، انتهاءً بالأحداث المتسارعة في نهاية الرواية، التي سردها الكاتب تحت العنوان نفسه (ليلة مجنونة)؛ فيتضح أن الكاتب اختار أحد العناوين الداخلية ليجعله عنوانا عاما للرواية، من باب إطلاق الجزء على الكل، إذ يمثل هذا الجزء المحور الرئيس الذي يجمع خطوط الحكاية، كما أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالمرضى في مستشفى الأمراض النفسية، فهم من يتصفون بالجنون، أو أنه يحيل بالدلالة الرمزية إلى الأمراض النفسية، التي يعاني منها كل شخص منهم، بسبب حادث ما يكشفه الكاتب أثناء عرضه جلسات العلاج النفسي على يد الدكتور منصور العابر، يسردها بلغة فنية تبدد عتمة العنوان، مستعينا بالحوار الخارجي بين الطبيب المعالج والمريض، فيكشف المريض أسراره معبرا عن الأزمات الداخلية التي رافقت حياته سابقا، وربما استمرارها معه فتركت أثرها عليه، فيسمع له الطبيب من أجل التخفيف عن الكبت النفسي عنده، ومن ثمّ تشخيص الحالة، ووصف العلاج، بغية شفائه، إلا أن أغلب الحوار الوارد في هذه الجلسات يحمل أبعادا ثقافية كامنة خلف اللغة الواردة على لسان شخصيات الرواية.

الأبعاد الثقافية المعتمة في النص الروائي:

تم تقسيم رواية ليلة مجنونة على عشرين قسما، يحمل كلّ منها عنواناً فرعياً، يعطيها بعض الخصوصية، لما يُعرض فيها من أحداث ترتبط بشخصية ما في الرواية، ولكن تبقى هذه التفريعات في محيط متكامل تُعضد بعضها الآخر، في سلسلة بناء روائي، يدفع الحدث نحو الذروة، ثم الانحلال في نهاية المطاف، ومن أجل الدراسة نقف عند أهم مرتكزات هذه المحاور، التي تنطلق منها إشعاعات أدبية تنير العتمة الثقافية.

---

[٥] ـ **ليلة مجنونة: محمد حمدان بن جرش:١١.**

الدخول إلى الحياة:

يمتلك الفعل اللغوي قيمة تواصلية، تجعله يفتح نافذة باتجاه المتلقي، فينظر الأخير في النص، مكونا مدلولات ذهنية، مستندا في ذلك إلى الدوال المرسلة من جهة المبدع أولاً، والمرجعية الثقافية له ثانيا، ثم يصل إلى وجهة نظر قرائية تتفق مع مقصدية المبدع، أو تقترب منها، وقد تبتعد كذلك عن المضمون النصي، تستقي رؤاها من ايحاءاته أو المجاز الذي يكون قابلا للتأويل.

وإذا كان هذا الفعل من مسلمات نظرية التلقي، فإن العنوان الفرعي(الدخول إلى الحياة)، ينطوي على عتمة إرسالية في الدوال المركب منها، فالمتلقي عند استقباله هذا العنوان، يستحضر في ذهنه عملية ولادة، ويبني توقعاته على هذا المدلول، وينتظر من الكاتب أن ينقله إلى ولادة حقيقية لطفل يواجه الحياة، ولكن النص يكسر أفق توقع القارئ، بمفارقة تضعه وجها لوجه أمام مجموعة قوائم، تُظهر نتائج طلبة السنة النهائية لكلية العلوم الطبية، قسم الطب النفسي، يقول الكاتب: ((يتزاحمون هناك كالنمل عند الحائط الذي نطلق عليه باب الدخول إلى الحياة، على هذا الحائط تعلّق الأحلام أو يطلق سراحها، خياران اثنان لا ثالث لهما، إما نجاح تنطلق بعده إلى حياة مفتوحة النهايات، أو رسوب يجعلك تعلق مرة أخرى على مقاعد القاعة الخشبية، على هذا الحائط تعلّق القوائم التي تظهر عليها حصيلة درجات التحصيل الأكاديمي لطلاب السنة النهائية لطلاب الجامعة بأقسامها الأكاديمية كلّها))[٦].

غيَّب الراوي سنوات طوال من حياته، بعد الولادة الحقيقة، وقدومه إلى الحياة، متجاهلا ما فيها من أحداث وزمن، وانتقل مباشرة إلى ساعة تلقي النتيجة النهائية لمرحلة أكاديمية، عدّها هي الولادة، التي تفتح عينيه إلى الحياة، ومن هذا الجدار(جدار الشهادة الأكاديمية) تبدأ الرحلة، فما قبلها، مرحلة تكوين، واحتضان جنيني، في رحم اجتماعي، أشبه بالعدم.

الدخول إلى الحياة، متوقف على حصول الإنسان على جواز سفره إليها، ويتمثل هذا الجواز بختمه بالوظيفة التي يحصل عليها بعد التخرج، وكأن الانسان الذي لم يحصل على الشهادة، غير مسموح له بدخول هذا الفضاء، وإن كان يتنفس ويتحرك ويحيا، فالحياة لمن يملك الراتب، ويحفظ حقه شهريا بالحصول على ما يؤمن له متطلباتها، بينما الإنسان الذي يحصل على قوت يومه، ويكد ويتعب، فإنه في قلق دائم، وبحث مضني عن لقمة العيش، هذا نسق مضمر في الوعي الجمعي، عند أغلب بلدان الوطن العربي، فتشكلّت نظرة سلبية تجاه الأعمال الحرة والتجارة، لذا نجد أن قسم من أصحاب رؤوس الأموال يسعى إلى الحصول على الوظيفة، معللا ذلك بأنها تفيده مع مرور الزمن والكبر، بالراتب التقاعدي.

---

(٦) ـ ليلة مجنونة: د. محمد حمدان بن جرش: ٥.

منصور العابر الحاصل على شهادة في الطب النفسي، حاله حال كثيرين أمثاله في وطننا العربي، إن لم نقل بلدان العالم الثالث، ينظر إلى الحياة على أنها تكمن في الحصول على وظيفة، الحصول على مصدر الرزق، من المهنة التي تضمن له الراتب الشهري، فقد حصل على المرتبة الأولى على دفعته، وعلّق اسمه في لوحة الشرف.

ولكن يبقى الوعي الجمعي، المنبثق من الأعراف السائدة لدى الفكر المجتمعي، ينظر إلى الطبيب النفسي نظرة دونية، تختلف عن النظرة إلى الأطباء في الاختصاصات الأخرى(الجراحة ، الباطنية، العيون الخ)، يمثل هذا النسق المجتمعي، عتمة ثقافية تجذّرت عبر تراكمات زمنية في فكر الناس من العامة، ((ففي مجتمعاتنا ينظرون إلى الطبيب النفسي على أنه (طبيب المجانين)، لا أمل في وصوله إلى الثراء، ويستحي الناس من الذهاب إليه، ناهيك عن الشك في قدراته العقلية))[٧] ويتمثل هذا النسق بوالد منصور، فقد وصف تخصّص ابنه على أنه لا يعدو((سوى ترهات يمكن لأي شيخ أن يأتي بمثلها بل أفضل منها.. تستطيع فاطمة العرّافة أو الشيخ حسين أن يعالجا المصروعين، والمجانين، وأصحاب العلل العقلية))[٨]، لذا كفّ عن مناداة ابنه بـ (يا دكتور) التي اعتاد أن يناديه بها –تحفيزا له– قبل دخوله الجامعة، وصار يناديه باسمه فقط (منصور) ، وأحيانا بـ (يا ولد)، بعد أن قُبل بتخصّص الطبّ النفسي، فهو كأي أب كان يُمنّي نفسه، أن يكون ابنه طبيبا في اختصاص آخر، جراحا مثلا، أو مهندسا تعويضا عن الفقر الذي عاناه.

إنّ إشعاعات النص الأدبي تعمل على تبديد النسق الثقافي المعتم، الذي يتبنّى أصحابه تلك النظرة المجتمعية إلى الطبيب النفسي، بصورة غير مباشرة عبر آلية الحوار بين منصور من جهة وأمه وأبيه من جهة أخرى.

قالت الأم: ((– هل يعني هذا أنك أصبحت طبيبا؟

أجبتها وعيناي تلمعان بالفرحة، أخيرا أحدهم يهتم بي

– نعم يا أمي، طبيب أمراض نفسية.

- تعالج من؟
- أعالج النفوس التي تتعب.. النفس كالبدن يصيبها ما يصيبها.
- وهل تمرض النفوس؟
- وهل تمرض إلا النفوس يا أمي))[٩]

---

(٧) ـ ليلة مجنونة : ٦-٧.
(٨) ـ المصدر نفسه:٧.
(٩) ــ المصدر نفسه:٧-٨.

أمّا حواره مع أبيه فيبدأ بقول والده: ((لماذا يا ولدي، تخصّصت في الطب النفسي؟ لماذا لم تكن جراحا مثلا؟...

- أنت من قادني إلى دراسة علم النفس يا أبي
- أنا؟
- نعم أنت! ...
- أتذكر –يا أبي– كيف كنت تعالج مشكلات إخوتك بناء على معرفتك بطبع كل واحد منهم؟ لقد قلت لي مرة : عمك سعيد سريع الغضب، ولكن قلبه طيب، عنتي صفية كانت تعيد وضوءها ثلاث مرات لأنها كانت وسواسة تظن أنها قد نسيت أن تمسح رأسها أو أذنيها، ... هل تذكر يا أبي كيف استطعت أن تحل مشكلات أهل حينا حين يلجؤون إليك لمعرفتك الوثيقة بهم، كنت مقبرة يدفعون فيها همومهم ومشكلاتهم يا أبي؟
- ما علاقة هذا بتخصصك؟
- منك تعلمت أن أدرس طبائع الناس لأعرف كيف أتعامل معهم، كيف أتمتع بحس عقلاني، وأتعامل مع الأمور بطريقة منطقية، لقد علمتني الصبر وحسن الاستماع ومساعدة الآخرين وتخطّي المواقف الصعبة والمحرجة.
- رأيت في عينيه تلك النظرة التي أعرفها جيدا.. النظرة التي توحي بأنّ حديثي مسّ قلبه.. فال وقد بدا صوته رؤوفاً:
- تمنيت ألا تعاني مثلي في الحياة!))[١٠]

جاءت ردّة فعل منصور العابر في حواره السابق مع والديه، بأسلوب هادئ، ينم عن خلق كريم، ورؤية واعية تبدّد الاعتقاد السائد عن الطب النفسي، والطبيب الذي يتخصّص في هذا المجال، فكانت ردوده تعمل على تفكيك النسق المضمر الراسخ في ذهن والديه ومن خلالهم إلى المجتمع، ليعيد بناء ثقافة أخرى، تزيح العتمة عن تخصصه في الطب النفسي، مستعينا بالأدلّة المنطقية التي تمنحه القدرة على معالجة النفس البشرية الحزينة، البائسة، المتأزمة، المكتئبة، وإعادتها الى طبيعتها، فضلا عن حل المشكلات النفسية والاجتماعية، التي لا تقل أهمية عن الأمراض الجسدية، إلا أن تجربة الوالد في هذه الحياة مع البشر منحته رؤية واقعية، مع تشخيص دقيق لمستقبل ابنه، وعلاقة تخصّصه بالمحيط

---

(١٠) ـ ليلة مجنونة:٨ـ٩.

الخارجي، لاسيما مع مرضاه، لذلك جاء ردّه على فكرة ابنه منصور بقوله: ((تمنيت ألّا تعاني مثلي في الحياة!))(١١).

يصدق حدس الأب، إذ تمر أربع سنوات عجاف على خطبة منصور من حبيبته جواهر، بعد تعيينه في مستشفى حكومي، إلا أنه لم يتقدم قيد أنملة في توفير تكاليف الزواج، ولم يسطع أن يفتح بيتا؛ لذا تخلع جواهر خاتم الخطوبة من اصبعها بهدوء، وتغادر محطته مسرعة، تاركة خطيبها(حبيبها)، يكابد فشله، قائلا: ((شعرت بلوعة الفقد، وخيبة الأمل لأول مرة في حياتي. كنت صريحا مع ذاتي، إن ذئاب الفشل بدأت تنهش حياتي منذ تخرجي، ولا أمل في دحرها بعد أن تلاشت آخر أحلامي... سقطت فريسة للاكتئاب، اعتزلت الناس.. كنت أرى الأشياء بمنظار أسود، ألوم نفسي كثيرا، لجأت إلى عزلتي لأتفادى فشلي))(١٢)

هنا تكمن المفارقة في النظرة إلى الوظيفة، فما ظنه منصور من دخول الحياة عن طريق الوظيفة، يتبدّد أمامه، فلا يرى إلا سرابا، في طريق يسير فيه ولا يصل إلى شيء من تحقيق أحلامه.

في ظل الحقيقة الواقعية التي يطرحها النص، يعاني منصور – الطبيب النفسي المتخصّص بعلم النفس– من الاكتئاب، ومنصور مثالٌ من أمثلة كثيرة تشبه حالته. كم من شاب عركته الحياة، بحثا عن تحقيق ذاته، بأسلوب قويم، وطريق شريف، يسلكه مقاوما التيارات الملتوية التي تفسح المجال في الحصول على مكاسب ذاتية، لكنّها تأتي على حساب العدل، والحق، والمبادئ السامية.

يقرّر منصور أن ينجح في حياته، لأنه يَعُدُّ الركون إلى الفشل أسهل الخيارات، وأقل تعبا، لذا عليه أن يجتاز المرحلة، فيضع هدفا أمامه تعويضا عما لاقاه، يريد أن يرى نظرة الندم في عيني جواهر حينما تراه انسانا ناجحا.

نافذة الأمل:

يبدو أن النجاح – في كثير من الأحيان– لا يتحقّق بامتلاك الميزات العلمية، أو المهنية، ولا حتى مرتبة الشرف التي يحصل عليها الخريج، فهناك مؤهلات أخرى تفرض نفسها على الواقع الاجتماعي يكشف عتمتها الحوار الآتي: ((كان أنيقا وبيده سيجار فاخر.. صحت مندهشا أيمن عبد الرحمن! قال ساخرا كعادته:–أخيرا عادت لك الذاكرة. قلت مستدركا : ايييييه أين أنت يا رجل؟ مرّت خمس سنوات على تخرجنا، أين قذفت بك الدنيا يا لئيم؟ حرّك الكرسي الآخر المواجه لطاولتي، وجلس عليه مقلوبا وهو يواجهني، وقال ضاحكا:–تخرجك أنت، أمّا أنا فقد فشلت في الدراسة، وقذفت نفسي إلى الحياة.

(١١) ـ المصدر نفسه: ٩.
(١٢) ــ ليلة مجنونة:١٣.

أعرفك جيدا كما أنّ الحياة قد أعطتك كلّ شيء عدا الأخلاق.

ضحك أيمن بصوت عالٍ وكأني لم أسبّه منذ قليل، وقال وهو يغالب ضحكته: –ما زلت طويل اللسان كما عهدتك وفقيرا كما أنت.

- لم أولد وفي فمي ملعقة من ذهب مثلك.
- بالنسبة لدفعتنا كلّها كنت أنت فيها الملهم الذي نتمنى أن نكونه.

قلت أبادله ذات الأسى: – وأنا الآن أول الفاشلين.. كنت أحلم بالحصول على وظيفة ومرتّب جيد والزواج، ولكن الفشل يلازمني، حتى من أحبّها أخفقت في تحقيق أحلامها.

اقترب منّي أيمن وعيناه تنغرسان في عيني وهو يقول هامساً: – استطيع أن أدبّر لك مقابلة مع مدير مستشفى النور للطبّ النفسي، أنا أعرف سكرتيره الخاص، سأجعله يحشر أوراقك ضمن المتقدمين للوظيفة.. اعتبرها خدمة منّي...

- قل له إنك من طرفي.. ولكن عليك أن تكون مطيعا لأوامر مدير المستشفى– يا منصور– ولا تحشر نفسك في التفاصيل!))[١٣]

يمارس المال في النص أعلاه نوعا من الثقافة السلطوية، تجاه الثقافة العلمية، فهو الذي يدير الأشياء، ويدبر الأعمال، ويحقّق الغايات التي عجزت الشهادات على تحقيق جزء منها، إلّا أن المال الكثير غالبا ما تشبوه الشوائب، فلماذا أخبر أيمن منصوراً بالمقابلة همساً؟ وما المقصود بقوله لا تحشر نفسك في التفاصيل!؟ هناك أشياء يخفيها أيمن لا يريد لمنصور العابر أن يعرفها أو يبحث عنها، وهي تشكل عتمة أولى عن تفاصيل العمل وحقيقة مستشفى النور، التي لم يجد منصور العابر شيئا عنها في الانترنيت إلّا الشيء القليل عن مؤسسة كبرى شهيرة في مجال المنتجعات الصحية تملك مصحا نفسيا في جزيرة منعزلة.

بعد المقابلة بيومين تلقّى منصور خبر اختياره طبيبا في مستشفى النور، وأبلغوه بالراتب الذي كان خياليا، ربما خمسة أضعاف راتبه في المستشفى الحكومي، كما أبلغوه أن أمامه أسبوعا لينهي إجراءات استقالته من جهة عمله القديم. بعد أن أنهى التزاماته، وبدأ مشواره الجديد قائلا: ((وحين أقلعت بي الطائرة، كنت أشعر أنّني أولد من جديد، مع فرصة جديدة للحياة، وعليّ أن أجعلها فرصة للنجاح.. فرصة لاستعادة جواهر))[١٤].

---

(١٣) ـ ليلة مجنونة: ١٧.
(١٤) ـ المصدر نفسه:١٩.

يُعد الانتقال إلى عمل جديد ولادة من منظور الحياة العملية، فهو يمنح الإنسان سبيلا لتحقيق الذات، واستعادة الجوهرة الثمينة، الكنز الذي يبحث عنه المثقف المخذول في الجولة السابقة، هدف يسعى إلى تحقيقه، هدف تكوين الأسرة (العائلة) التي تمنحه السكينة وإثبات الذات اجتماعيا، وتمكين وجوده ثقافيا، إذ إن منصورا يمثل أزمة المثقف، في ظل واقع اجتماعي، اقتصادي، يغيّب الكفاءات، فالقراءة النقدية التي تعتمد على المنظور الثقافي، لا تقف عند المعنى الظاهر للدوال اللغوية، بل تعمل على استكناه الأبعاد الثقافية، الكامنة خلفها، مستعينة بطرح الأسئلة التي تبحث عن إجابات.

إذا ما تجاوزنا الغاية الجمالية، ومبدأ الإثارة في رواية ليلة مجنونة، وانتقلنا إلى طرح سؤال مفاده: ما هي أزمة المثقف؟ وأين تكمن العتمة في حياته؟ نجد أن اشعاعات المبنى الحكائي، تفتح لنا الأبواب، باتجاه مضمرات النص، عبر إشارات موحية، وإحالات رمزية، تفضي إلى مدلولات تشكل إجابات عن تلك الأسئلة.

نجد إحدى تلك الإشارات في قول مدير مستشفى النور للطب النفسي، مخاطبا منصور العابر بعد انتقاله إليه قائلا: ((إنني أدعوك لحضور حفل الليلة، لتتعرف بنفسك إلى مرضانا المبدعين، أما عن طبيعة العمل، فإنّ تخصصك قد يجعلك تباشر معظم الحالات هنا))[١٥] .

إن وصف المرضى بالمبدعين، يحيل إلى مفارقة لغوية على مستوى الدلالة، وينقل الموصوف من مسماه الملتصق به (الحالة المرضية) إلى شخص مبدع، لم يتم تحديد نوع الإبداع عنده، لذا تنفتح مدلولات الإبداع على جميع الفنون، سواء أكانت لغوية، أم تمثيلية، أم تشكيلية كالرسم مثلا وغيرها، نستنبط من هذا الحوار، أن المستشفى تضم مجموعة من الشخصيات المبدعة، التي يمكن تصنيفها على أنها حالات مرضية تحمل إبداعا فنيا، أو أدبيا، نقف عندها، مستوضحين تفاصيل تخصّها.

الشخصية الأولى: سالم/ الناي

قرّر الدكتور منصور أن يكون سالم أحد المرضى هو مفتاح الباب، الذي يَلِج بواسطته إلى بقيّة النزلاء في المستشفى، فسأله عن هوايته بعد حوار دار بينهما عن هواية هشام في الرسم، وناعمة في الشعر قائلا:

((وأنت؟

– مجرد عاشق قاتل، خانته سامية ذات صباح فقرر خنقها بيده فاحترق جراء غبائه))[١٦]

---

(١٥) ـ ليلة مجنونة: ٢٣.

(١٦) ـ المصدر نفسه: ٣٢.

ثم يتابع الاثنان فقرات السهرة في بهو المستشفى، وبعد غناء حسن لأغنية الأماكن الرائعة لمحمد عبده يقول الدكتور منصور.

((ملتُ إلى سالم لأسأله عن الهواية التي يحبّ ممارستها، فقد ألهمتني موهبة حسن وصوته الجميل.

– أحب العزف على الناي.

– تميل إلى الحزن، الناي يطلق الأحزان.

– بل الناي يطلق طاقة الشجن الكامنة في الجميع سواء كنت عازفا أم مستمعا، هو ليس آلة كئيبة، بل على العكس، إن تحرير الحزن الحبيس في النفس يفسح المجال لدخول السرور مكانه))[١٧].

يسعى سالم في حواره، إلى تفكيك النظرة المجتمعية السائدة، في وصف الناي على أنه آلة حزن، فيأتي ردّه على منصور بأسلوب ينمُّ عن وعي ومعرفة بآلة العزف هذه، مصحّحا تلك النظرة، فالصوت الخارج من الناي يطلق طاقة الشجن الكامنة في نفس العازف، والمستمع على السواء، ويعمل على تحرير الحزن، ليفسح المجال لدخول السرور مكانه.

نجد في كلام سالم تبريرا منطقيا، يستند إلى فلسفة واقعية قائمة على تجربة شخصية في العزف على الناي، ومعطيات هذه التجربة ومخرجاتها، تقوّض النسق الذي ينظر إلى الناي على أنه آلة الحزن.

في الجلسة الثانية للعلاج يبوح سالم إلى الدكتور منصور بأسرار قلبه، كاشفا الغطاء عن عتمة نفسه قائلا: ((لم يفارقني الناي حتى وأنا أدخل إلى عالم آخر مليء بالمعارف والأصدقاء، عالم الجامعة حيث تم قبولي بكلية الهندسة، قسم التصميم المعماري، كان الناي زميلي الذي أضعه في حقيبتي قبل وضع الكتب والدفاتر، لم أخنه وأتخلى عنه لدخولي عالما جديدا، هو أيضا لم يتخلّ عنّي، ولم يخنّي، ولأن الناي صديقي كان هذا الوليف يتآمر على قلبي سرّا، كان يختار أجمل أنغامي وأحلاها ليتغنى بها، كان ماكرا ويعرف أيّ الدروب التي يتوجب عليه أن يسلكها.. كان يتركني، ويسافر مع نسمات الهواء ليداعب سمعها، ماكرا، فقد كان ينسج حباله حولها.. حتى حملها إليّ ذات يوم ماطر))[١٨] .

إن طريقة تقديم المادة الحكائية على لسان سالم، تتجاوز الوظيفة الإبلاغية؛ فالمفردات المستخدمة لا تقف عند المعنى المعجمي الذي يحيل إلى المدلول مباشرة، فخطابه يكتسي بصبغة جمالية ذات وظيفة شعرية؛ إذ إنه يختلف عن الخطاب العادي، الذي يهدف إلى وظيفة نفعية تواصلية، بطريقة عفوية، فسالم يطرز كلامه بفنون بلاغية ترفعه عن مقام النثر العادي، فتشع لغته بخيال فنّي، وأسلوب أدبي. ومن يقرأ كلامه يجد نفسه أمام شخص مثقّف يعرف كيف يصوغ الكلام، ويسرد الحدث، ومع هذا الطرح يطفو

---

[١٧] ـ ليلة مجنونة:٣٥.

[١٨] ـ المصدر نفسه:٥٣.

سؤال في الذهن، يحمل تعجبا، ما الذي أتى بسالم إلى هذا المصح النفسي؟ وما هي الأزمة التي جعلته في هذا المكان؟ يتابع سالم حديثه،((قالت بدلال: صديقك يقول إنك حزين ووحيد حتى وأنت بهذا الجو الماطر.

من هذه الجميلة التي تقتحم علينا حديثنا يا صديقي؟ سألت صديقي الناي مستاءً.

–قال لي غاضبا:

–أيها الأحمق، ألا تفهم؟ أنا من دعوتها إلى هنا.

–قلت مستدركا وأنا أنظر إليه بحب: أووو إنه يعرف عنّي كلّ شيء

–هكذا بدأ تعارفنا أنا وسامية التي قرّرت اقتحام عالمي بعينيها الحالمتين الفاضحتين.

– هل تختار لي لحنا خاصا تعزفه لي وحدي؟ أو أختار أنا بمعرفتي؟!

كالعادة لم يخذلني صديقي الموغل في قدمه وعراقته.. لم يرجع بعيدا على عصر آلات النفخ، وجدتني أعزف مقطوعة لدوهيرتي))(١٩).

تتولّد الصورة الفنية في ذهن المتلقي، من خلال شخصنة سالم لآلة العزف(الناي)، وفتح حوار معه، بوصفه صديقا يعرف أسرار قلبه. إن الباحثين في السرديات، أو الخطاب الروائي يميزون بين مستويين : القصة كما حدثت في الواقع، أو ما يسمى بالمتن الحكائي، والآخر طريقة عرض هذه القصة بشكل فني وهو ما يسمى بالمبنى الحكائي، وما يهمنا – هنا– ليست الأحداث نفسها، بل طريقة عرضها، فنلاحظ أن الحوار الذي ينقله سالم في جلسة العلاج، يكشف عن بناء فني، وحبكة متقنة، فضلا عن صور متخيلة يرسمها بلغة شعرية، لا تمت بأي صلة إلى مريض يمكن وصفه بالجنون، أو الاضطراب النفسي، فمن يمتلك هذه القدرة اللغوية في التعبير، لا يمكن وصفه إلّا مبدعا، يصوغ لغته بأسلوب فني عالٍ، فضلا عن ثقافته في معرفة المعزوفات، لاسيما الغربية منها؛ إذ اختار من بينها مقطوعة لأفضل العازفين على الناي الموسيقار(آلان دوهرتي) الإيرلندي، الذي استمع لمعزوفته الملايين من الناس في الفلم الشهير(سيد الخواتم)، لهذا السبب يمكن لنا أن نضع شخصية سالم في خانة أزمة المثقف، الذي مرّ بحادثة قوية زعزعة كيانه، وأودت به نزيلا في مستشفى النور للطب النفسي. هذه الأزمة لازالت تمثل عتمة في حياة سالم عند المتلقي، يسعى إلى اكتشافها عبر متابعة الإضاءات التي يرسلها النص مع تقدم أحداث الرواية، وما يبوح به سالم لطبيبه المعالج منصور.

((كنت فرحاً كصبي عثر على قطعة حلوى تمسّكت بسامية، عشقتها بجنون، كانت هي من علّمني كيف احافظ على ما أحبّ، وجدتني أرحبّ بها بداخل قلبي اتبقى ملكة عقلي وقلبي وبيتي، تزوجنا، على الرغم

(١٩) ـ ليلة مجنونة: ٥٣ـ٥٤.

من ظروفي المادية التي لم تكن تسمح لي بالزواج بعد التخرج مباشرة، لم تكن حياتي العملية مستقرّة، لم أستمرّ في العمل في أي شركة أكثر من ثلاثة أشهر، كان الجميع يراني غريب الأطوار، بينما كنت أرى نفسي غير منافق ولا متملّق بالقدر الكافي الذي يكفل لي الاندماج في محيط العمل، لم أكن ماهرا في نسج المؤامرات والدسائس لأبقى في عملي، لم أكن أجيد التزلف والتسبيح بحمد الآخرين لأتقرب إليهم، لذلك كنت أنسحب إما باختياري أو على الرغم منّي))[٢٠].

يسرد سالم أهم تفاصيل حياته، بحبكة قصصية صاعدة، تستند إلى الارتداد الزمني نحو الماضي، يعرض فيها حادثة تعرفه على سامية، وزواجه منها، ثم بحثه عن عمل يكفل لهم حياة كريمة، إلا أنه يصطدم في محيط عمله بواقع يقوم على مبدأ المجاملة والعلاقات إن لم نقل على النفاق، فيراه يختلف عن طبيعته، وثقافته، ومبادئه، فأدى ذلك إلى تنقّله من شركة إلى أخرى، عله يجد نمطا من العمل يقوم على أسس منطقية، يقدم الإنسان الكفوء، لجهده وعلمه وإخلاصه، لا على أساس المصلحة، التي تضع الإنسان في المكان الذي لا يتناسب مع قدراته في الاختصاص الموكل إليه. ولكن لم يجد سالم هذا العالم في أي شركة، ممّا أدّى إلى عدم حصوله على استقرار نفسي يهيئ له البقاء في مكان ينسجم مع عوالمه، بالمقابل كان ينظر الآخرون إليه على أنه غريب الأطوار.

هناك وجهتان من النظر مختلفتان، يمثل سالم الأولى منها، والثانية تتمثل بالآخرين الذين يحيطون بسالم في الشركات التي عمل فيها. كلّ جهة تمثل نسقا ثقافيا تعارض فيه الأخرى، فصورة سالم تعكسها المرآة الأدبية لصورة الإنسان العصامي، الذي يريد أن يحقّق ذاته بذاته، ويؤدي عمله بكرامة، وعزة نفس بعيدا عن التملق والمحاباة من أجل الكسب المادي أو الوصول إلى المناصب العليا. أما الاتجاه الثاني: فهو صورة مجتمعية منتشرة تمثل السواد الأعظم من غالبية العمال، فلا يجد أحدهم ضيرا في قليل من التنازل، لأصحاب المكانة، أو السلطة، مقابل الحصول على لقمة العيش، وإن كان ذلك على حساب شخصيتهم وكرامتهم، فيدفعهم ذلك إلى التملق والنفاق، المسمى في عرفهم مجاملات.

إن تفكير سالم بهذه الطريقة كان يضايق سامية زوجته، لأنها تختلف عنه في أسلوب حياتها.

((لم تكن كرامتي من المظاهر التي أرتديها ليراها الآخرون، كنت احتفظ بها لنفسي، لكن سامية التي تكتشف تلك الصفات منذ البداية كانت تضيق بكل هذا، كأنما كانت تكتشف تلك الفروقات بيننا يوما بعد يوم، وكنت اكتشف هذا الفرق أنا أيضا، وكلما زادت اكتشافاتنا توسعت الهوة بيننا، وكثر صراخنا في وجه بعض، وكثر خصامنا))[٢١].

---

(٢٠) ـ ليلة مجنونة: ٥٤ـ ٥٥.

(٢١) ـ ليلة مجنونة:٥٥.

بدأت ملامح الصورة تتكشف شيئا فشيئا لكل من سالم وسامية، وأقصد هنا الأبعاد المعنوية التي تحملها الشخصية، وليست الصفات الخارجية المتمثلة بجسم الإنسان، فإذا كانت بداية حبهم مبنية على الجمال الأنثوي المرتسم بالعيون، والشفاه، والرومانسية الحالمة من الطرف الآخر، فإن الزواج وما بعده يُظهر الطبائع، وطرق التفكير، وإن كانت متضادة فإنها تقود إلى الصراع.

((كأنما كنت أراني نسخة من أبي.. صراعه الذي لا ينتهي مع أمي، لم أكن أنحاز لأي طرف في هذا الصراع.. لم يكن يهمني من المنتصر، ثم وجدتني مع أمي بينما رحل أبي بعيدا وتركنا، لم تكن أمي ترى في أبي سوى رجل كثير الشكوك، وسواسا، وكان يراها أبي امرأة لعوبا، ويجب أن تشكم كما البعير، أما سامية فلم تكن ترى فيّ سوى إنسان مليء بالعقد، شديد الاعتداد بكرامتي لدرجة السخف، ترى أنني أعاني من عقدة الاضطهاد، لم تكن سامية ترى عيبا في التقرب لأحدهم من أجل أن أنال وظيفة أحفظ بها ماء وجهي من جذوة الفقر، لم تكن ترى أن في توددي طلب العمل ما يمس كرامتي طالما أني آخذ الأجر مقابل العمل، لكنني أراها على خطأ، وكانت تراني مغرورا))[٢٢].

يسترخي سالم في جلسة العلاج، تاركا عقله الباطن يسترجع ذكريات حياته، فيسرد قصة والديه، التي تركت أثرا عميقا في نفسه، ويربطها بحياته الزوجية، إذ يكشف السرد عن قطبين متضادين(الذكورة، والأنوثة)، فتصبح الجلسة العلاجية استنطاقا لمكبوت باطني يصعد إلى السطح، تعرضه مرآة أدبية تعكس المضمر في ذهن المريض/ المبدع، فيُزال الغطاء عن الأنساق المعتمة، القابعة خلف دلالات النص الظاهر. يبدو النسق الذكوري – في حديث سالم– نسقا محافظا يميل نحو الفحولة، لا بمدلولها الجنسي؛ ولكن بمعطياتها الدينية التي تمتح من أحكام القرآن الشرعية في قوامة الرجل على المرأة. يريد والد سالم أن يشكم زوجته، ولمّا عجز عن إذعانها للنسق الذي يؤمن به تركها وابنها ليبدأ حياته من جديد. وتمثّل النسق الأنثوي في والدة سالم، التي ترى كثرة الشكوك في زوجها. أما سامية فهي الأخرى كانت ترى في سالم رجلا مغرورا، لا يحسن الاندماج في المجتمع.

((سألتها وأنا أكتم انفعالي: هل ما زلت تتواصلين مع عادل بعد أربع سنوات من التخرج؟ قالت متلعثمة.

– قابلته بمحض الصدفة في أحد مراكز التسوق وسألني عن أحوالي وسألني عنك، وحين أخبرته بأننا لا نكاد نجد عملا أصرّ على أن التحق أنا وأنت بالعمل معه.

(٢٢) ـ المصدر نفسه:٥٥.

عاد إليّ ترددي وكأنّي على وشك أن أدخل في نفق مظلم وأنا مغمض العينين، لم يكن عادل من الزملاء المقربين منّي، بل كنت أمقت تعاليه، أو ربّما– لأكون صادقا– كنت أحسده على حياة الترف التي يحياها))(٢٣)

يُفهم ممّا سبق من حوار، أن سامية، تسير في اتجاه متمرد، أو يقود إلى ذلك، فاستنطاق النص، وإيحاءات سالم تشي بذلك، ومنها قوله: (وكأني على وشك أن أدخل في نفق مظلم، وأنا مغمض العينين)، ويبدو أن زوجته لم تكن تذعن لمبدأ المرأة المحافظة، التي تمتثل لقوله تعالى: ((فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض)) (الأحزاب/٣٢)، بل على العكس من ذلك، كان تفكيرها، وأسلوبها في الحياة، فالنسق المتمثل بعادات سالم وتقاليده ومبادئه، يستفزها، وتعترض عليه.

تجمع الصورة الحوارية الواردة على لسان سالم غايتين، الأولى: جمالية تتمثل في البناء الفني الذي يخضع لقوانين الجنس الروائي، والثانية: تحتاج إلى تأمل في البنية الظاهرة، التي ينبثق عنها رؤى عميقة مناطة بفكر الشخصيات، وأسلوب تعاملها مع الواقع المعيش في الحياة. يوضح ذلك المقابلة مع عادل، قال سالم: ((عند التاسعة قابلنا عادل في مكتبه بترحاب كبير، كان مكتبا أنيقاً... عرض علينا راتبا كبيرا، وأبدى سعادته بقبولنا العمل معه إكراما للزمالة التي جمعتنا سابقاً، رحّبت سامية، وأبدت امتنانها له بأن منحنا الفرصة، وبادلته عبارات المجاملة، وقبلت أنا على مضض، كنت أخشى أن أفشل هذه المرة، فتطلب الطلاق، وأنا لا أريد لابني أن ينشأ بين أبوين منفصلين كما نشأت أنا))(٢٤).

يبدو الوضع الاجتماعي السائد على العلاقة العائلية، بين سالم وسامية، متوترا، إذ نجد سالما أمام مصير يهدّده بالطلاق، فيشعر بانعدام الأمن تجاه قوة تسيطر عليه، قوة تمتلك المال، تسخره لصالحها، تعمل على جذب مكاسب شخصية، لا صلة لها بالمال، بل على استدراج شخصيات وضمها لجانبها، ممّا أدى الى العبث بخصوصيات سالم الزوجية، وعمل على تفكيك أسرته، وهو لا يملك القدرة على المواجهة، والمجابهة؛ لعجزه، وقهره ماديا، لذا يذعن للقرارات الصادرة من عادل(السلطة / المال)، ويقبل الوظيفة على مضض، بحذر، وتردّد، فهو لا يقوى على تقرير المصير بمفرده، أما سامية، فتظهر استكانتها، وتبعيتها للمدير الجديد، فترك الانطباعان المختلفان أثرهما على طبيعة عملهما في الشركة. يتابع سالم قوله: ((كلما حاولت الاندماج مع عملي الجديد وجدت شيئا ما يكبّلني، لا أرى في عادل على الرغم من نجاحه الكبير في عالم الأعمال إلا ذاك الشاب الوسيم الذي حصل على كلّ شيء عدا قلب سامية، الشاعر الذي يحبه الكل عداي، مع أني لا أعرف سببا لهذا الكره، صار يدعونا للسهر في أماكن راقية لم

(٢٣) ـ ليلة مجنونة:٥٦.
(٢٤) ـ ليلة مجنونة: ٥٧.

نكن نعتاد دخولها، واللافت أن سامية صارت أكثر أناقة وجمالا، كأني أكتشف جمالا آخر غير الذي تعودت عليه في المنزل... كان عادل يحول حياتنا على النمط الذي يريد هو، يريدني أن أبدو نسخة مصغرة من أناقته وبرجوازيته، يريد أن يستحوذ على هذا الشيء القليل الذي أملكه.. وقتها عرفت لماذا أكره عادل.. أكرهه لأنّه ينال كلّ شيء يريده حتى سامية التي كانت عصية عليه، حتى أنا يريد أن يصادر ذاتي))[٢٥].

هل أن عادلا مصاب بالجرح النرجسي، الذي لازم حياته في زمن الكلية وما بعدها؟

فقد حصل على كل شيء إلا قلب سامية الذي استعصى عليه، ربما شكّل ذلك عنده عقدة نقص، سعى في أقرب فرصة أتيحت له إلى تعويضها باستدراج سامية، وتقريبها منه بحجة العمل، وفي الحقيقة دفع هذا الأمر إلى اضطهاد سالم والتجاوز على خصوصيته، ووضعه أمام خيارين: الرضوخ والانصياع أو التمرد والانتفاض لكرامته، وشرفه، وما يحدّد ذلك، العادات والتقاليد والقيم التي انغرست في وجدانه في ظل المجتمع الذي ينتمي إليه من جهة، وتركيبة بناء شخصيته، ونفسيته من جهة أخرى.

لقد أفرز انخراط سالم وسامية في شركة عادل ضغوطا نفسية على سالم، فهو لم يكن في حقيقة الأمر يعمل فعلا بالشركة بل كان مهمّشا، لا يقوم بأي شيء سوى تناول أقداح الكابتشينو بكثرة، والتدخين بشكل مفرط، بينما تغرق سامية في زحمة العمل، وقد تجلب الملفات الى المنزل لإكمال ما مطلوب منها، وهنا يشعر سالم أن المدير يسرق منه زوجته، إذ كان يمنحها العطايا تقديرا لجهدها. فيبوح سالم بما في قلبه لطبيبه النفسي منصور قائلا:((تحدّث عادل كثيرا في تلك الليلة عن الفرق الذي أحدثته سامية في العمل، في كلّ مرّة كان يؤكد على أن ما يمنحنا إيّاه ما هو إلا تقدير للجهد والعطاء الذي تقدّمه سامية، أنا لا أذكر أنّي أفعل شيئا ذا قيمة في العمل، لم أكن أعمل بالمعنى الواضح، كنت أتناول أقداح الكابتشينو بإفراط، وأذهب إلى غرفة التدخين لأدخّن عشر سيجارات دفعة واحدة، لا شيء يوقفني عن ذلك عدا الآلام التي تصيب حلقي من شراهة التدخين، حرفيا أنا لم أكن أعمل شيئا بينما كانت سامية تغرق فيه، تحمل بعض الملفات إلى المنزل لتعمل عليها، تراجع الإيميلات الكثيرة المتراكمة على جهاز الحاسوب. النقال، ترد على مكالمات العملاء المميزين، استطاع عادل أن يسرقها منّي تماما... حتى علاقتي بابني أصبحت لا تخلو من الطلبات، من سمح لك يا عادل بأن تفعل كلّ هذا بحياتي؟ – من سمح لك؟ من سمح لك؟ من؟ كان سالم يصرخ بتلك العبارة وقد بدا كالمشلول وهو ممدّد على السرير، كان يصرخ ويداه متصلبتان

(٢٥) ـ المصدر نفسه: ٥٧ـ٥٨.

إلى صدره، فقط ملامح وجهه تدل على الغضب والانفعال، كان لا يتحرك منه سوى رأسه بعنف كأنما مقيّد إلى الكرسي، طلبت من سالم أن يهدأ.. كأنه كان في سبات عميق، وقد أفاق على صوتي))[٢٦].

يأتي انهماك سامية في العمل، بحثا عن مكاسب مادية، تغيّر حياتها الاجتماعية إلى درجة أعلى اقتصاديا، في ظنها أنّ ذلك يعزّز قيمتها الإنسانية، أمام واقع ينظر إلى الإنسان وقيمه، على أساس ما يملك من ماديات، بعيدا عن القيم والمبادئ، التي يتصّف بها، ومن وجهة نظرها يُعدّ البحث عن المال والحصول عليه، هو ما يحقّق جوهرها الإنساني، وإن كان طريق الحصول عليه فيه شائبة من حيث العلاقة التي تربطها بعادل، أما سالم فكان يعيش في دوامة مشهد متكرّر يرى فيه استلاب زوجته منه بشكل تدريجي، وأن المال سواء أكان بيد عادل(صاحب الشركة) أم الذي تحصل عليه سامية من عملها، يمارس ضغطا قويا على كينونته، ويسلبه القدرة على أن يملك زمام نفسه، ووجوده أمام متغيرات الحياة، التي تتطلب نمطا من التعامل، لا ينسجم مع تفكيره إن سالما بوعيه الثقافي يشعر أن الأشياء المحيطة به غريبة عنه.

إن السلوك اليومي الذي يمارسه الأفراد في محيط العمل، يتجاوز حدود النص، وينفتح إلى أبعاد ثقافية أوسع؛ لأنه يشمل وجهات نظر متعدّدة استقاها المؤلف من سنن الحياة، وزج بها بصورة بنائية فنية في الرواية، على أنها صفات مناطة بشخصيات ضمن دائرة العمل، يحدّدها سرد سالم لقصته، وفي هذه الدائرة وأقصد(الشركة) تنتظم شبكة من العلاقات المجتمعية، تحيل إلى النشاط الذهني، المرموز له بشخصية ما داخل الحقل المعرفي، تمثل رمزا للممارسات، والسلوكيات الإيجابية والسلبية في الواقع الحقيقي، فتعكس الرؤى الثقافية لمجتمع ما، بشكل غير مباشر بحيث تنطبق عليه الصفات المذكورة في المبنى الحكائي.

فالراوي لا يستطيع أن يظهر الرؤى الفكرية، والثقافية للمجتمع؛ إلا من خلال الأنساق المحدِّدة للأعراف، والمبادئ، والتقاليد المناطة بالشخصيات، وهي تتكشف للقارئ المتبصر في الإيحاءات المتواترة عبر السرد، ونجدها مرتبطة بالشخصيات، والزمان، والمكان، والحدث. والبعد الثقافي لا يظهر في المستوى السطحي للنص؛ لأنه يكمن خلف الإشارات التي يرسلها المؤلف على لسان الشخصيات، فضلا عن بيان الهيئة الجسدية، أو الصفة اللونية للوجه أثناء نقل الكلام عنها، فالحركة الجسدية، وملامح الوجه من غضب وثورة وغيرها، تُعد لغة أخرى تعبّر عن مدلول ما، حسب الحركة التي يؤديها الجسد، أو الصفة المتصف بها الوجه، أو أعضاء جسم الإنسان.

---

[٢٦] ـ ليلة مجنونة: ٥٩.

في تلك الجلسة العلاجية خيّم الغضب على سالم، وبدا متوترا متشنجا من علاقة عادل بزوجته سامية، إلا أن الطبيب النفسي المعالج(منصور) طلب منه أن يكمل قصته، ويواصل حكايته، للتخفيف عنه بالبوح الذي ينقله، قال سالم: ((كانت تلك الصفقة من أكبر الصفقات التي ستقوم بها الشركة، أعطت سامية جلّ وقتها للتحضير لهذه الصفقة، حاولت شرح الوضع لي وأنه يجب أن يكون لي دور فيها بصفتي مهندسا بارعا في التصميم الهندسي، ولكنّي تجاهلتها، مساء كان عليّ أن أقلها إلى الفندق الذي سيتم توقيع العقد فيه، كانت سامية في قمة غضبها عندما أنزلتها أمام الفندق، طلبت مني ألّا أعود لإرجاعها إلى المنزل، وأنها سوف تستقل تاكسي لتعود. كانت غاضبة جدا، وكنت أكثر غضبا، أنزلتها وغادرت مسرعا. رنّ هاتفي وأنا في المنزل، كان المتصل هو عثمان زميلي في المكتب، كعادته وقح ويحب نقل الكلام أسرع من الانترنيت، وأيضا يحب مثل تلك المناسبات، اتصل قائلا: – أين أنت يا سالم؟ لماذا لم تحضر؟ لقد كان يوما رائعا، لقد تمّ كلّ شيء بنجاح.. لقد غادرنا منذ ساعة، وتركنا عادل وسامية بالفندق! تجاوزت الساعة الثانية صباحا ولم تحضر سامية بعد، أخذت مفاتيح سيارتي، وعدت إلى الفندق، كانا يقفان إلى الواجهة الزجاجية للصالة يحملان كأسين من عصير البرتقال، كانا أقرب إلى التلاصق، لم يكن بالمكان سواهما، يحتفلان بنجاحهما وفشلي، كان عادل يحتفل بإقصائي وهو يضحك بصوت عالٍ.. وخلال ضحكه رأيته يميل بوجهه إلى الأمام، ويطبع قبلة على شفتيها، كانت الطاولات مليئة بما لذّ وطاب من الطعام، كانت أطباق الفواكه موزعة هنا وهناك، حملت سكّينا وركضت نحو عادل، ما إن انتبه إلى وجودي حتّى غرست سكّين الفاكهة في عنقه، سقطت سامية أرضا من الذعر، وجدتني أغرس السكّين نفسه في عنقها الجميل.. كانا يصرخان بينما كنت أضحك. رحت أركض في بهو الفندق متّجها إلى الشارع مشهرا السكين التي تقطر دما، حراس الفندق أمسكوا بي وأنا أضحك، وصرخاتهما ترنّ في أذني، لم أستطع مقاومة الضحك، كنت أضحك، وأضحك، وأضحك، حتى عندما جاؤوا بي إلى هذا المكان لم أتوقف عن الضحك))[٢٧].

إن النص الأدبي مضمون فني يحمل علامات، وإشارات، ومظاهر ثقافية، وغير ذلك من الدلالات، التي تنفتح على التواصل بلغة إيحائية، تحثّ المتلقي على أن يكدّ ذهنه، ويستجمع قوته القرائية لكي يفك شفراته، فيصبح النص بنية سميائية تصب في اتجاهات عدّة: ((منها الاتجاه العلاماتي، الذي يهتم بدراسة العلامة وعلائقها، وأنظمتها، ورتبها، وهو سيمياء الدلالة. وآخر إشاري يبحث في أنواع الإشارات، وبنيتها، وطبقاتها، والقوانين التي تحكمها، وهو سيمياء التواصل. بينما يهتم الاتجاه الثالث بالمظهر الثقافي

[٢٧] ـ ليلة مجنونة: ٦٠-٦٢.

الذي يفيد من سلوك الفرد ونسقه الثقافي ضمن وحدة تعالق تحدد البنية الداخلية للنص في ارتباطه بالنسق الثقافي، وقد اطلقوا عليه سيمياء الثقافة))[٢٨].

نجد في تصريح سالم الأخير مجموعة من الإيحاءات، تعمل على رفد القارئ بمعانٍ ضمنية، تستنبط من اللغة الإرسالية للنص، كقوله: (كانت تلك الصفقة من أكبر الصفقات التي ستقوم بها الشركة، أعطت سامية جل وقتها للتحضير لهذه الصفقة)، تشير هذه المعلومة إلى أمرين، الأول: انكباب سامية في دائرة العمل ووصولها الى مكانة متميزة فيه بحيث يوكّل اليها المدير التحضير لهذه الصفقة المهمة، ومن جهة ثانية انشغالها عن العائلة بسبب هذا التحضير، الأمر الثاني: لم يكن لزوجها دورٌ في هذه الصفقة، إلا أنّها طلبت منه أن ينظّم إلى المشروع بصفته مهندسا بارعا في التصميم، ولكنّه تجاهلها. وهذا النص يؤكد تفاعل سامية مع عملها، على العكس من سالم الذي تراجعت مكانته على الرغم من قدراته التي صرّحت بها زوجته.

يعود السبب في قوة الحضور والارتقاء في العمل إلى الطريقة التي يدير فيها عادل الأمور في الشركة، أي أن المال هو سيد الموقف ضمن السياق الثقافي للمجتمع، يعلي شأن من يريد، ويحطّ كفة من يريد. إن تجاهل سالم للصفقة، جاء كردة فعل لتجاهله وتجاهل قدراته الهندسية، إذ إنه لا يريد أن يستجدي المكانة في العمل، بل يريد أن يطلب منه أن يقدم خدماته ليشعر بشخصيته وكينونته. لأجل ذلك أوصلها الى الفندق من دون حضور الاجتماع، ممّا أغضب الزوجة وطلبت منه أن لا يعود لأخذها.

ومن الإشارات الأخرى اتصال عثمان الهاتفي بسالم، قائلا له: (لماذا لم تحضر، كان يوما رائعا... لقد غادرنا منذ ساعة، وتركنا عادل وسامية في الفندق!)، إن هذا الأسلوب يدفع الى الشك والريبة، والتلميح إلى علاقة بين عادل وسامية، ممّا أثار غضب سالم، فضلا عن تأخر سامية من الرجوع الى البيت، فحمل سالم نفسه وذهب الى الفندق، فرآهما أقرب الى التلاصق ويحتفلان بنجاحهما وفشله، فكانت النتيجة أن قتلهما بعد أن رأى عادل يطبع قبلة على شفتي زوجته.

كانت النهاية المؤلمة تجعله يضحك بشكل هستيري، إلا أن جاءوا به الى المستشفى، يمكن أن نؤول ضحك سالم بعد الجريمة، على أنه فرح المنتصر، إلا أنه جاء بصفة غير شرعية، وهو يقابل احتفال عادل وسامية بنجاح المشروع، فكان ردّة فعل على فعل سابق.

إن اشعاعات النص كشفت العتمة المحيطة بشخصية سالم ذلك المثقف العصامي، المهندس البارع، العازف الحزين، الذي لفظه المجتمع بسبب تمسكه بمبادئه، وعدم نفاقه، أو تملقه للآخرين من أجل المال، أو العمل. لذا دفع مقابل ذلك حياة زوجته، وارتكابه جريمتي قتل، فكانت نهايته دخول المصحة النفسية.

---

[٢٨] - إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر: ١٠١.

الشخصية الثانية: هشام

يبدأ القسم العاشر من الرواية بعنوان: ((اللوحة والجدران))(٢٩)، وكل عنوان له مقصد ما أو مقاصد عدّة فـ ((المرسل يتأول عمله فيتعرف منه على مقاصده، وعلى ضوء هذه المقاصد، يضع عنوانا))(٣٠). يؤدي هذا العنوان الفرعي (اللوحة والجدران) وظيفة وصفية بما تحمله مفرداته من دلالات تشير إلى أشياء محدّدة المعنى، فضلا عن الوظيفة الدلالية الضمنية أو ما يسمى بالوظيفة المصاحبة، التي لا تنفصل عن المتن الذي أنجب هذا العنوان.

إن اللوحة في العنوان كلمة مفردة والجدران جمع، وفي ذلك مفارقة من حيث المنطق، إذ يقتضي الواقع أن تكون اللوحات بصفة الجمع، والجدار مفردا، لأن الجدار الواحد تعلّق عليه مجموعة من اللوحات، ولكن انعكست الصفتان إحداهما مكان الأخرى، فما الغاية من ذلك؟ يمكن أن نجد الإجابة في المتن النصي للرواية، فالعنوان لوحده لا يكشف عن نفسه.

يذكر المؤلف نصا يأتي مباشرة بعد العنوان يضعه بين قوسين: ((قرّرت ألّا أرسم مرة أخرى، فطلبت منهم ألّا يجلبوا لي أدوات الرسم، لكنهم أعادوها لي حين وجدوني- رغما عنّي- أرسم بمعجون الأسنان على جدران الغرفة))(٣١). يتبيّن لنا فيما بعد أن صاحب هذا الكلام هو هشام، ومنه نستنتج أنه رسام، ولكن يكمن السؤال، لماذا قرّر أن لا يرسم مرة أخرى؟ وما هي القوة التي ترغمه على الرسم؟ هذه العتمة يضيئها السرد شيئا فشيئا في الرواية.

لقد قرأ الطبيب منصور ملف هشام، ووجد أن الأطباء قبله قد صنّفوا حالة هشام كنوع متقدم من الاكتئاب، ولكنه في جلسة علاجه له يخاطبه بقوله: ((- لكنّني أعرف أنك فنان، والفن نقيض الاكتئاب، لذلك اعتقد أن هناك خطأ في الأمر، فالفنان مبعوث السعادة للبشر))(٣٢).

في النص أعلاه، يريد منصور أن يفتح حوارا مع هشام - في جلسة العلاج-، بشكل سلس، فينفي ما أقرّه الأطباء قبله بخصوص حالة هشام، ولكن يفاجئنا هشام بردّه، الذي يكشف أولا عن مثقف يعرف كيف يردّ على الأسئلة التي توجّه إليه من خلال الأدلّة التي يعرضها، وثانيا يفند المضمون الفكري الذي يعرضه الطبيب النفسي منصور، فيقول: ((- أنت مخطئ يا دكتور، إن الفن لا يبعث دائما على السعادة، وحتى إن فعل ذلك في المتلقي بإحدى يديه فإنه قد يحطم باليد الأخرى حياة الفنان وقلبه، ألم تسمع من قبل عن فنان أنهى حياته منتحرا بعد أن بلغ ذروة الإبداع والشهرة؟ ليس كل الفنانين سعداء، قد يجيد الفنان تقديم

(٢٩) ـ ليلة مجنونة: ٨٨.
(٣٠) ـ العنوان وسميوطيقيا الاتصال الأدبي: د. محمد فكري الجزار:١٩.
(٣١) ـ ليلة مجنونة:٨٨.
(٣٢) ـ المصدر نفسه: ٨٨.

السعادة للآخرين، ويفشل في جلبها لنفسه))(٣٣). نستنبط من هذا الرد أن الفن أو الرسم إذا أردنا أن نكون دقيقين، قد حطّم حياة هشام، وقلبه معا، من هنا يتبين لنا لماذا قرّر ألّا يرسم مرّة أخرى، فهو يسوق حكايته مع الرسم وحبه له منذ كان في المدرسة الابتدائية، بينما كان أبواه يريان في ذلك مضيعة للوقت، ولا سيما إذا كان الرسم أيام الامتحانات، بينما كانت خالته المتزوجة من رجل يعمل في البترول تشجعه على الرسم، إذ كان يبقى هشام عندها أيام غياب الزوج عنها، بسبب وظيفته التي تمنحه إجازة لمدة أسبوع كل شهرين. وفي يوم من الأيام كان هشام يبيت عند خالته فشعر بأرق شديد ورغبة ملحة في الرسم، يقول: ((لم أفكر بما سأرسم، فقط انسللت من حضن خالتي وفاء، وأخرجت دفتر الرسم وأقلام الرصاص، وانطلقت أرسم، أنهيت لوحتي، وشعرت ببعض الراحة، كأنما كنت أشرب كوبا من الماء على ظمأ، وجلست أحملق فيها مشدوها، قرّبتها من الضوء الخافت في الغرفة، غير مستوعب أيّ شيء، أنا فقط وجدتني أرسم الحزن مجسدا في وجه خالتي وهي تجلس على مقعد ضخم، تبكي بحزن وحرارة، وخلفها كانت تظهر صورة زوجها معلقة على الجدار، وعلى ركنها الأيسر كان هناك خط أسود مائل، وقتها لم أكن أعرف دلالة الأشياء، ولكنّي رسمت ذلك))(٣٤).

يشكل البوح الإرادي للشخصية في النص السابق، انزياحات عن الوعي، الى حال من الهاجس الممزوج بين الواقع والحلم، فالطريقة التي يرسم بها هشام تعبث بما هو مألوف، فشهية الرسم الدافعة له بقوة، بحيث توقظه من نومه، تضع المتلقي أمام حدث مهم يُتخيل أنه سيقع فيما بعد، وكأن اللوحة التي خطتها يده تَصورت بطريقة آلية بعيدة عن تفكيره الواعي بما يرسم؛ لذا يجد نفسه غير مستوعب ما حصل له. هذا الفعل جعله يعيش في رؤية قاتمة، وغموض الحالة التي تسيطر عليه وتدفعه الى رسم أشياء لم يخطط لها مسبقا، إنما تفرض عليه فرضا في لحظة آنية، ويستجيب لها من غير حول أو قوة تدفع عنه هذا الشعور. هذا الفعل يطلق عليه ضمن المذهب السريالي بـ (الأتمتة) وهي تقنية تسمح للعقل الباطن بالتحكم في العملية الإبداعية، غالبا ما يستخدمها الرسامون السرياليون في انشاء صور عفوية، وغير منضبطة تعكس أفكارهم وعواطفهم العميقة. فقد ذكر سابقا أنه رسم بمعجون الأسنان على الجدران لمّا لم يجد أدوات الرسم، فضلا عن ذلك يسرد شيئا من هذا القبيل عن طفولته قائلا: ((منذ طفولتي والرسم يمثل لي حالة غريبة، لم يكن متعة بالنسبة لي، كما يظن البعض، بل كان فرارا من حالة مؤلمة، كانت تنتابني رغبة عارمة في أن أمسك بالأدوات، وأشرع في الرسم، وتظل تلك الرغبة تلّح وتزداد، وكلما أمعنت في تجاهلها أصبت بألم في رأسي لا يزول إلا إذا أذعنت لها، وبدأت في التنفيذ، وكانت هذه الرغبة تأتيني

(٣٣) ـ المصدر نفسه: ٨٨.
(٣٤) ـ ليلة مجنونة: ٩٠ـ ٩١.

في أوقات غريبة على غير اختيار مني، فتوقظني من النوم مثلا في ساعة متأخرة، ولا أستطيع العودة للنوم إلا إذا انتهيت من الرسم))[٣٥]. كما يؤكد في حديثه لطبيبه المعالج أنه في هذه الحالة التي تنتابه، تكون مخيلته فارغة من أي تصور لما يريد أن يرسم، ((لا تكون في مخيّلتي صورة محدّدة حين تنتابني الرغبة الغريبة، وحين أمسك الألوان لا أعرف ماذا سأرسم، ولكنّني أترك ليدي العنان لتفعل ما تريد وكأن شخصا غيري يحركها، كلّ هذا لم يكن أمرا ذا بال، حتى بدأت الأمور المخيفة تحدث وأنا بعد في الصف الخامس الابتدائي))[٣٦].

نكتشف من سرده فيما بعد، أن زوج خالته قد مات بسبب سقوط الطائرة التي تقله، فيصاب بجزع وذعر شديد ويسأل نفسه، هل ترى لما رسمته قبل أيام علاقة بما حدث؟، هل تراه فألا سيئا كما تراه أمي؟

لم تكن تلك الواقعة هي الأخيرة، بل حدث معه أشياء مشابهة فيما بعد، كرسمه وجه جاره عاريا كالحقيقة ومخيفا كوحش أسطوري، وهو ممسكا بتلابيب رجل ما، مستخدما اللون الأحمر القاني بكثافة لخلفية اللوحة. فكانت النتيجة أن قُتل جاره. وفي حالة أخرى يرسم وجه صديقه بلون أحمر محتقن وعينين منتفختين ونمش وردي متقيح. بعد يومين تتصل والدة صديقه لتخبره بأن ابنها مصاب بالحصبة السيلانية. وفي فترة الجامعة أثناء إحدى المحاضرات شعر بالضجر فأخذ يجري قلمه على الورقة البيضاء بخطوط غير واضحة، وشيئا فشيئا، بدأت الخطوط تتضح، إنه رجل برأس ضخم لا يتناسب حجمه مع جسمه، لكن هذا الرأس كان يحمل ملامح أبيه، وبعد أخذ الفحوصات اكتشف أن أباه مصاب بسرطان المخ، فعاد الى الصورة التي رسمها وبين بكاء وثورة عارمة قام بتمزيقها، وبعد رحلة مضنية مع الألم دامت ثلاث سنوات يموت والده[٣٧].

وبعد تخرجه من الجامعة عمل موظفا في بنك وتزوج وانجب ولدا اسمه جمال، إلا أن حالته النفسية لم تستقر واكتسب مزاجا متقلبا بسبب الآلام التي يشعر بها، فالحوادث الماضية تلاحقه، وبعد ست سنوات من الزواج طلبت زوجته الطلاق فمنحها ذلك عن طيب خاطر واتفقا ان يرى ابنه كل أسبوع. وفي فجر إحدى الليالي تنتابه حالة الرسم المعتادة فيقاوم رغبته، إلا أن الصداع يعصف برأسه ويزداد، فيحمل حاله مترنحا ويجلس على المكتب، وتبدأ الخطوط تتشكل على الورقة أمامه، فتظهر صورة ابنه جمال تحت عجلات السيارة، وبعد اجراء مكالمة هاتفية مع والدة جمال تبين أنه ذهب الى المدرسة. خرج هشام مسرعا الى مدرسة ابنه وانتظره حتى يخرج ثم اصطحبه معه، فطلب الولد من أبيه أن يشتري له آيس كريم من الجهة المقابلة للمدرسة فتركه على حافة الطريق وذهب ملبيا طلبه، في هذه الأثناء يأتي بعض الشباب

---

[٣٥] ـ المصدر نفسه: ٩٠.
[٣٦] ـ ليلة مجنونة:٩٠.
[٣٧] ـ ينظر : المصدر نفسه: ٩٣ـ٩٥.

ومعهم كلب ضخم ينبح باتجاه جمال، فيشعر بالذعر مما دفعه الى عبور الشارع، فتأتي سيارة مسرعة فتطيح به أرضا ويفارق الحياة[٣٨].

كل هذه الأحداث يسردها هشام في جلسة العلاج، ولم تتوقف تلك النبوءات بدخوله المستشفى، فقد تنبأ بوفاة طبيبين وشاب، وحصل ذلك بالفعل، حتى أصبحت تلك الصور والضحايا تطارده في كوابيس يراها[٣٩].

لقد اتضح ممّا سبق أن هشاما رسام، يعاني من أزمة نفسية بسبب التنبؤات التي يشكلها بصورة لوحات، تتحقّق فيما بعد. إن اللوحات التي رسمها الفنان المبدع هشام، لم تكن ضمن السياق السردي المعروض، ذات وظيفة جمالية، بل اتخذت مسارا آخر، فأصبحت علامات سيميائية، تشير إلى موضوعات محدّدة، وحوادث مقدّرة، تكتشفها ذات المبدع، نتيجة ضغط نفسي، وقوة غامضة تدفعه إلى تشكيلها، بآلية معينة تجعله لا يمتلك القدرة على دفعها، أو التصرف في طريقة تكوينها، وبعد تفسير تلك العلامات، بالحوادث التي تقع للشخصيات المرسومة، يصبح الفن (الرسم) كابوسا، يهز مضجع المبدع ويلقيه في مشفى نفسي.

إن الفنان بطبيعة الحال يسعى إلى الخلق والأبداع، ومحاكاة الجمال، ولكن في حالات أخرى يصبح الفن تعبيرا عن مكامن نفسية غامضة، وقد يتطور الأمر فيكون الفن أشبه بحالة عصاب، يسعى المبدع إلى التخلص منه كحالة هشام، إلا أنه ملازم له، حتى أحدث شرخا في تفكيره وحياته، لذا سعى الدكتور منصور في حواره معه إلى دفعه إلى التخلص من المشاهد السابقة، وعدم الوقوف عندها، ونصحه أن يمارس الرسم بطريقة أخرى لأنه يخلصه من التوتر النفسي والقلق.

الشخصية الثالثة: نور سعيد الساري

نور هي ابنة الملياردير المشهور سعيد الساري، صاحب مصانع الحديد والإسمنت، وملك التطوير العقاري، كانت تحرص على أناقتها، وقد ملأت صورها صفحات مجلات الموضة، والمجتمعات المخملية، وحفلات الليل الصاخبة، إحدى نزيلات المستشفى تشغل إحدى الغرف البعيدة التي تبدو أكبر حجما من الغرف الأخرى، التقى بها الطبيب منصور أول مرة عندما خرج هو وسالم متجها من الرواق إلى صالة الطعام لتناول الفطور بعد أن استيقظ في الساعة السابعة مع الغروب؛ إذ كان نظام المستشفى يحتم على نزلائه أن يناموا نهارا ويستيقظوا ليلا لإحياء السهرات، وتمثيل المسرحيات، التي كان يقوم بها المرضى المبدعون[٤٠].

(٣٨) ـ ينظر :المصدر نفسه: ٩٧ـ٩٩.
(٣٩) ـ ينظر: ليلة مجنونة: ١٠٠.
(٤٠) ـ ينظر: ليلة مجنونة:٦٣ـ٦٤.

إن الشخصيات التي اختارها الروائي جميعها شخصيات من عامة الناس، وإن كان بينهم المهندس والممثلة والشاعر والرسام، كلهم مبدعون، إلا شخصية نور فهي من طبقة عالية تملك المال، ولوالدها خبرة في الاستثمار، فما الذي أتى بها الى المصح النفسي؟ عتمة تحتاج إلى تفسير.

ذلك ما تكشفه أحداث الرواية، فالطبيب منصور العابر قد اطلع على ملف نور وظن أنها قد غادرت المستشفى، ولكنها في الحقيقة لم تغادر وكانت تقظي أكثر أوقاتها منعزلة في غرفتها؛ لذا لم يرها الطبيب منصور من قبل[٤١].

بعد مضيّ وقت ليس بالطويل في صالة الإفطار، يستدعي الدكتور جلال(مدير المستشفى)، الطبيب منصور إلى مكتبه، كان يبدو عليه الاضطراب والقلق والانزعاج والتوتر، سأله منصور خيرا يا دكتور؟ أجابه إنها نور، إنها ابنة الشيطان الذي سيحلّ بلعنته علينا، عليك أن تجد لها حلّا يادكتور..

ويدور الحوار بين الاثنين، فتبدأ خطوط الحكاية تجتمع مع بعضها، وتكشف إشعاعات النص عن تفاصيل خطيرة تضيء العتمة حول وجود نور في المستشفى، أشياء خُفيت عن الدكتور منصور لم يعرفها من قبل، ولم تذكر في ملفّها. ((– ما لا تعلمه هو أن والد نور يمتلك الحصة الأكبر من رأس مال مستشفى النور للعلاج النفسي، وهو من قام بتشييد هذا المستشفى على نفقته ليستثمر فيه أمواله. – تلك معلومة جديدة لي. – ولا تعلم أنّه هو من أرسل ابنته هنا للعلاج بعد أن سئم من أفعالها التي كادت تطيح بإمبراطوريته ... حسنا يا دكتور جلال أخبرني عن طلب نور المزعج هذا، فقد مللت من الحوار الدرامي هذا. إنها تريد طفلا. – ولكنها غير متزوجة. –عض الدكتور جلال على شفتيه تعبيرا عن غيظه من سذاجتي، وقال صارخا: – إنها من عبدة الشيطان يا دكتور منصور.. وتريد طفلا لتذبحه في طقوسها المجنونة))[٤٢]

يمثل المؤلفُ راويا شاهداً على الأحداث في الحوار أعلاه، فلا يتدخل في عرضها، بل يدع الشخصيات تتواصل مع بعضها، وتتصرف برؤية فكرية نابعة من ذاتها، فتعكس لنا صورها كما لو أنها تعيش في الواقع، وكأننا أمام أحداث تحصل فعلا، وننسى أننا أمام متن روائي قائم على المسار السردي، أو الحوار، فيكشف النص عن تفاصيل غامضة، تتعلق بنور أولا وبالمستشفى ثانيا، إذ يلجأ المدير إلى الطبيب منصور مستنجدا به لإنقاذه من سطوة نور، وأفكارها الشيطانية. فيقترح عليه الحل الآتي: ((لنعطها عقار الليثيوم للاضطراب ثنائي القطب... – ولكن الليثيوم لا يعطي مفعولا سريعا، فهو يحتاج إلى

(٤١) ـ ينظر : المصدر نفسه:٦٥.
(٤٢) ـ المصدر نفسه: ٦٩ـ٧١.

أيام حتى يتمكن من السيطرة على تلك الأفكار الهوجاء. قلت بسرعة: – سنحبسها في غرفتها، ونحقنها بالديازيبام))[٤٣]

ومن يتأمل شخصية نور في الرواية، يجد أنها على العكس من دلالة اسمها، فهي بناء على الوصف الذي جاء على لسان منصور من عبدة الشيطان، ولها طقوس خاصة، كانت غرفتها مطلية باللون الأسود، من يدخلها يشم رائحة الموت والشر والكراهية والجنس والرغبات الشاذة، تتوسط نجمة خماسية تشع ضوءا فسفوريا لامعا أحد جدرانها، ومن الجهة الأخرى توجد طاولة تمثل مذبحا تعبديا مغطى باللون الأسود، وضعت عليه كأس مليئة بالعظام البشرية، إلى جانبها زجاجات من الخمر، وخنجر معقوف ، وقد تناثرت الرسوم الشيطانية على الجدران بعشوائية[٤٤].

يقوم الوصف أعلاه على استحضار حال شخصية نور، وبيان فكرها واعتقادها وطريقتها في الحياة، فهو لم يركز كثيرا على الوصف الجسماني لها بل تتبع المكان الذي تسكن فيه، وأَثَرَ فعلها به، ومن خلال المكان والأشياء المبثوثة فيه استطاع أن يوصل فكرة واضحة عن نور.

ولكن في النهاية يكون تعامل الطبيب المعالج مع الشخص وليس المكان، لذا قرّر أن يبدأ جلسة العلاج، بعد أن رأى حالة الهدوء خيّمة على نور: ((قالت بصوت واهن: كان الصوت يلح عليّ في عناد، كان ملتصقا بعقلي ويصرخ بي.. افعلي ما تريدين، ابتدعي قانونك الخاصّ، لا ينبغي عليك التورط في الحبّ، فالحب ضعف وتهافت، أزيحي كلّ من يقف أمام رغباتك تلك هي قوانيني التي وضعتها لنفسي، قد ترونها قوانين متسلّطة، لكن هذا في قاموسكم أنتم، أما في قاموسي فأنا أراها حقوقا مشروعة))[٤٥]. يبدو من كلام نور أنّ لديها مشكلة ما بسبب الحب قبل أن تذكر تفاصيل ذلك، لأنها اتخذت قرارها بعدم التورط فيه، ووصفت الحب بالضعف والتهافت، فهل عاشت تجربة فاشلة، جعلتها تصل إلى هذه الرؤية الفكرية، التي تتعارض مع الرؤية العامة للحب؟ يبدو ذلك غامضا، ويشكل عتمة عند المتلقي، تكشفه نور فيما بعد أثناء جلسة العلاج.

إن كاتب الرواية (المؤلف)، يحسن الحبكة، فالتنظيم الداخلي للنص يلائم بعضه بعضا، فالأحداث ترتبط فيما بينها، والسرد السابق يمهد لقصة لاحقة، وأحداث جديدة، وهذا ما يجعل المبنى الحكائي قابلا على محاكاة الواقع، بحيث لا يشعر القارئ أن الرواية فيها خلل منطقي في طريقة عرضها للمضمون، وتصوير الشخوص وتطور الأحداث فيها[٤٦].

---

(٤٣) ـ ليلة مجنونة: ٧١.
(٤٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٧-١٠٨.
(٤٥) ـ المصدر نفسه: ١٠٨-١٠٩.
(٤٦) ـ ينظر: بنية النص الروائي، إبراهيم خليل: ٢١٥.

فالآخر عند نور وأقصد به المختلف جنسيا(الحبيب) يمثل سلطة تمارس سطوتها على الفتاة بحجة الحب، ومن تذعن لمشاعرها تضعف أمام الرجل، ممّا دعاها إلى الانسلاخ من الفكر الثقافي والديني الذي يحمله المجتمع من حولها، وسعت إلى الانتماء إلى طبقة أخرى بالنقيض من الأولى فيما يخص السلوك والفكر.

فقد شكّل بدر الطالب الفقير العصامي المجتهد، الذي أحبته نور نقطة تحوّل في حياتها، بعد أن رفضها، للفارق الطبقي بينهما، وقد علم جميع الطلبة بذلك، وهي التي يتمنى الكل رضاها، ثم تغيرت قناعاتها بالحب، ولامت نفسها على أنها استسلمت لسطوته قائلة: ((لا أحد يكره الحبّ مثلهم سواي، أنا من يفوقهم في كرهه، بدأت أؤمن بما يؤمنون به، فالحياة هي الملذات، والموت فقط هو من يحرمنا منها، عليّ أن أغتنم الفرصة الآن وأغترف منها، فلا حياة بعدها، بدأت أؤمن بكل تعاليم (إله الظلام)، وعبدة الشيطان، نعم الشيطان، إن الذين يسيئون إلى عبدة الشيطان هم أغبياء بحقّ، من غيره يملك الآن القوة المطلقة في هذا العالم؟ إن امتلاء العالم بكل هذا الكم من الشر ينبئ كلّ متأمل بأن زمان الشيطان قد أتى، وأنّ أتباعه سوف يسيطرون على العالم عمّا قريب، لذلك قرّرت أن أكون واحدة منهم))[٤٧].

يعرض الخطاب الروائي بعض السلوكيات التي تعتمد على تثقيف خارجي، تفعل فعلها بعقول بعض الشباب ومنهم نور، فهناك جهات تبث سمومها في وسائل عدة منها الإعلامية أو البصرية الالكترونية الخ، من أجل كسب هؤلاء الشباب لصالحهم، وتغيير فكرهم ورؤيتهم نحو مجريات العالم وقوانين السماء، فالتنبؤ بسيطرة قوى الشر على العالم والاعتقاد الجازم بذلك والانحياز له، يمثل فكرا خطيرا ينخر في جسد الأمة، لذا لم تستطع نور ممارسة طقوسها الشيطانية، أمام أنظار المجتمع، فهي تقول في جلسة العلاج مسترجعة الماضي[٤٨]: ((حين قرّرت أن أغير عقيدتي على هذا النحو بدأت أشعر أنّني أمتلك قوة لم تكن لديّ من قبل، وأن هذه القوة في طريقها للازدياد كلما تقّدمت في طريقي إليه، فقط كانت هماك بعض العوائق، منها أنّني لا استطيع أن أجاهر بعقيدتي، لذلك كان لزاما عليّ أن أكون شخصا آخر أمام الناس، كما أن إله الظلام يحبّ الطقوس الجماعية، ومركز والدي يمنعني من مشاركة اية جماعة طقوسها، فاكتفيت بممارسة الطقوس وتلاوة الصلوات وحدي في غرفتي، ولم يعد يفصلني عن الخضوع التام سوى تقديم (القربان البشري)، وكان هذا مستحيلا في الوقت الراهن، لكن لا بدّ أن أفعله يوما)).

---

(٤٧) ـ ليلة مجنونة: ١١٨-١١٩.
(٤٨) ـ المصدر نفسه:١١٩.

تجد نور في معتقدها الجديد قوة تستطيع من خلاله تحقيق انتقامها من بدر الذي خذلها وأذلها برفضه لها فبعد أن تفاقم أمرها أرسلها والدها إلى هذا المستشفى بناء على رأي الطبيب الذي رأى أنها تعاني من انفصام في الشخصية، إلا أنها بدأت تمارس طقوسها في المستشفى بشكل أكثر حرية : ((عدت بقوة لطقوس عبادة اله الظلام، طالبة منه العون على الانتقام، إذ لا يجدر بأتباع الشيطان أن يتعرضوا للخداع من الخراف الذين لا يملكون من أمرهم شيئا))[٤٩].

إن اشعاعات النص تكشف الغاية من بناء المستشفى، من قبل والد نور، فيتضح أن نور تفضل أن تكون نزيلة في هذا المصح وتمارس طقوسها بدون رقيب، على أن تكون في الخارج مقيدة، لا تستطيع تحقيق انغماسها في مستنقع إله الظلام، ولكن يبقى الأمل بتقديم القربان البشري غاية نور في تحقيق خضوعها الكامل لسيدها، وما كان يظنه الأطباء في أنها تعاني من انفصام في الشخصية، ليس تشخيصا دقيقا لحالتها، في الواقع هي كانت تعيش حياتها كما تريد فما كانت تخفيه عن المجتمع هو الصورة الحقيقية لها، وما تقوم به من طقوس كان عن وعي ودراية.

إن قصة نور توحي بسياق مضمر، يكمن في الإشارة الى طريقة حياة أصحاب الأموال الضخمة وكيف يتعاملون مع أفراد المجتمع، فضلا عن طبيعة حياة هؤلاء الأفراد داخل العائلة، فوالد نور، قد ألهته مشاريعه واستثمار أمواله عن معرفة حقيقة ابنته، فلو كان يعطيها شيئا من وقته ويقترب منها بعطفه وحنانه، ربما اطلع على أسباب انحرافها، ووقف بجانبها يعالج مشكلتها، لكن يتصور أصحاب رؤوس الأموال أن القوة والسعادة تكمن في المال، فيوفرون لأبنائهم ما يطلبون من مال، وأشياء مادية، إلا أنهم بعيدين عنهم وعن حياتهم كل البعد.

فقد ذكر الطبيب وليد المعالج النفسي السابق في مستشفى النور النفسي سرا غامضا للطبيب منصور قائلا: ((هل كنت تدري أن ماتدّره لهم تجارة المخدرات وتجارة الأعضاء أضعاف مضاعفة ممّا تدره لهم تجارة الحديد، وتلك الواجهات التي يحتمون خلفها لتمويه أنشطتهم المشبوهة وغسل الأموال))[٥٠] ولمّا اكتشف الطبيب وليد ذلك السر اتهمه المدير جلال بالوسواس القهري والكآبة الشديدة، وكان يصعقه بالكهرباء، ويتهمه بالجنون ويحذر النزلاء من الاقتراب منه والسماع لحديثه.

لكن الطبيب وليد اتفق مع الطبيب منصور في كشف سر المستشفى وما يدور فيها، فأطلعه على فتحة في الحديقة تقود الى ممرّ طويل يقود إلى القبو الذي تصنّع فيه المخدرات وتخزّن فوجدا في القبو آلة

(٤٩)- ليلة مجنونة: ١١٩.
(٥٠) - ليلة مجنونة: ١٥٣.

تغليف الحبوب، ومعمل صغير لإنتاجها، ومنه تنقل إلى خارج الجزيرة، فضلا عن وجود الدماء وأعضاء بشرية وثلاجات[٥١].

في الصفحات الأخيرة من الرواية، نجد أن حبكة الأحداث تسير باتجاهين متوازيين، كل منهما يدفع نحو الذروة، الاتجاه الأول يتمثل بمخطط نور التي سعت إلى الإيقاع بمنصور واتهامه باغتصابها في غرفة العلاج بعد أن مزّقت ثيابها وصرخت هاربة تذرف دموع التماسيح مستنجدة بالمدير، أما الاتجاه الثاني، فكان المتفق عليه بين وليد ومنصور في تحديد ساعة الصفر التي تقتحم فيها الشرطة المكان، بعد أن حصلا على هاتف نور خلسة الذي أبلغ بواسطته وليد الشرطة لتحديد مكان وزمان المداهمة، في هذه الأثناء كانت نور تخطّط للانتقام من منصور بحيث تقدمه قربانا لسيد الظلام لأنه رفض حبها، وبعد استدراجه إلى غرفتها عن طريق الدكتور جلال يتم تقييده من قبل اشخاص على الكرسي، وتعقد نور صفقة مع الدكتور جلال مدير المستشفى، تغريه بالمال مقابل موافقته على تنفيذ مخططها. وأثناء قيامها بالطقوس ومحاولة قتل منصور يداهم الغرفة رجال الامن ويقبضوا عليها هي والمدير[٥٢].

في هذه الأحداث يتضح الصراع الإنساني بين قوى الشر متمثلة بنور ووالدها ومدير المستشفى والمستثمرين فيها، وبين قوى الخير متمثلة بمنصور ووليد، فالشر مهما يبدو قويا ويطول زمنه، لابد من ساعة صفر ينتصر فيها الخير.

إن العتمة المحيطة بنور، والمستشفى، والدكتور جلال، ليست عتمة دائرة واحدة، أو محيط سلط الكاتب الضوء عليه، إنها عتمة تتشظّى لتشمل بلدا كاملا، أو عتمة بلدان في الظاهر تحمل أسم النور وفي باطنها آلاف من القباء يصنّع فيها كل ما ينخر في جسد الإنسان، ويعمل على تحييد عقله عن الحق، وإبقائه في الظلام.

الخاتمة

يكشف تحليل الرواية أهم النقاط الآتية:

- إن عنوان الرواية يشكل عتمة، تنجلي مع تتبع المتن الروائي وصولا إلى خاتمته، فتكشف إشعاعات النص الأدبي، أن (ليلة مجنونة) تحيل دلالتها إلى الليلة التي تريد فيها نور قتل الطبيب منصور العابر، وتقديمه قربانا في طقوسها الشيطانية.
- إن الدخول إلى الحياة يكمن في تحقيق الإنسان ذاته في ظل المجتمع، وإن كانت الولادة نقلة من الوجود إلى العدم، حيث مثل الطبيب النفسي منصور العابر، الانسان المثقف الذي يبحث عن تحقيق

(٥١) - ينظر: المصدر نفسه:١٢٥- ١٢٨.
(٥٢) - ينظر: المصدر نفسه: ١٦٨ ومابعدها.

وجوده، وتكوين ذاته بما يمتلك من مؤهلات علمية، تعطيه فرصة اثبات كينونته، على الرغم من نظرة المجتمع السلبية تجاه تخصصه.

- يسعى الإنسان المثقف إلى محو النسق الاجتماعي الذي يقلل من مكانة الطب النفسي، او من يختص به.
- هناك أزمة يعاني منها المثقف، أو صاحب المبادئ في ظل مجتمع قائم على المجاملات والمحاباة والتملق، فيضع الإنسان غير المناسب في مكانة لا يستحقها؛ لذا نجد أن سالما المهندس الجاد في عمله لا يتأقلم مع واقعه في ظل الدوائر والشركات التي عمل فيها، فكانت النتيجة أن خسر زوجته وانتهى به المطاف في المصح العقلي.
- يوفر المال سلطة قوية في إدارة المجتمع، ويظهر أصحابه بأقنعة تخفي حقائقهم، فنزلاء الطابق العلوي من المستشفى يمتلكون رؤوس أموال ويديرون تجارتهم من داخلها.
- مثّلت بعض الشخصيات تيارا محافظا، لم يجرفها المال أو السلطة، وبقيت تقاوم حتى حققت الانتصار على منظومة الشر، مثال ذلك الطبيب النفسي السابق وليد؛ إذ اتهمه مدير المستشفى بالجنون لأنه اكتشف سر القبو وغسيل الأموال، وتهريب المخدرات، لكن استطاع بمعونة الطبيب منصور كشف الحقيقة أمام الشرطة.
- ظهرت في الرواية جرائم عدّة، كلّ منها ناتج عن أسباب أدت إلى ارتكابها، مع اختلاف المبررات، فعكست مناحٍ عدة من الحياة الاجتماعية، والوظيفية.
- كشف سير السرد عن اشعاعات النص الأدبي التي أضاءت عتمة الحوادث، وغموض الشخصيات، فكانت الإحالات المرجعية للدلالة النصية لها ارتباط وثيق بالسياق الثقافي.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- ليلة مجنونة: د. محمد حمدان بن جرش، دار سويد، دمشق، ط/١، ٢٠٢٢م.

ثانيا: المراجع

- إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر: د. عبدالقادر فيدوح، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط/١، ٢٠٠٩م.
- بنية النص الروائي: إبراهيم خليل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط/١، ٢٠١٠م.

- جماليات العنوان مقاربة في خطاب محمود درويش الشعري: د. جاسم محمد جاسم،دار مجدلاوي، عمان الأردن،ط/١ ،٢٠١٢م.
- العنوان وسميوطيقيا الاتصال الأدبي: د. محمد فكري الجزار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٩٩٨م.
- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن: أ.د. حفناوي بعلي، منشورات الاختلاف، الدرار العربية للعلوم ناشرون، ط/ ١، ٢٠٠٧م.